فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل: للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أنّ السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه كما أنّ العجف مما يقبح حسنه فصوّر أثر السمن فيه تصويرًا هو أوقع في نفس السامع وهي به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محلها والوفاء بها.

فإن قُلْتَ:قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضي على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإنّ عرض الأمانة على الجماد، وإباءه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئًا والمشبه به غير معقول. **قُلْتُ**: الممثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾.

واللام في ليعذب لام التعليل على طريق المجاز، لأنّ التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتدئ ويتوب الله ومعنى قراءة العامة ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعًا من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة سبإ مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ولما قال ﴿**الحمد لله**﴾، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه أنه المحمود على نعم الدنيا كما تقول احمد أخاك الذي كساك وحملك تريد احمده على كسوته وحملانه ولما قال: ﴿**وله الحمد في الآخرة**﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة، وهو الثواب.

فإن قُلْتَ:ما الفرق بين الحمدين؟ **قُلْتُ**:أمّا الحمد في الدنيا فواجب لا أنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب وأمّا الحمد في الآخرة، فليس بواجب لا أنه على نعمة واجبة[2] الإيصال إلى مستحقها إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتذون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد ﴿**وهو الحكيم**﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿**الخبير**﴾ بكل كائن يكون.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾.

ثم ذكر مما يحيط به علمًا ﴿**ما يلج في الأرض**﴾ من الغيث كقوله فسلكه ينابيع في الأرض، ومن الكنوز والدفائن والأموات وجميع ما هي له كفات ﴿**وما يخرج منها**﴾ من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب وغير ذلك ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ﴿**وما يعرج فيها**﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿**وهو**﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿**الرحيم الغفور**﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ننزل بالنون والتشديد.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 3/137.

(2) قال احمد:والحق في الفرق بين الحمدين أن الأوّل عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية = كالجبليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية = بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق، والله الموفق.

﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾.

قولهم: ﴿لا تاتينا الساعة﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى أنّ ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكدًا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمدادًا بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله ﴿ليجزي﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته، واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعبًا وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قُلْتَ: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى.قُلْتُ: نعم، وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأوّلها مسارعة إلى القلب إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئًا واضحًا.

فإن قُلْتَ: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذبًا كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قُلْتُ: هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة.

وهي قوله: ﴿ليجزي﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب وقوله: ﴿ليجزي﴾ متصل بقوله ﴿لتاتينكم﴾ تعليلاً له، قرئ: ﴿لتاتينكم﴾ بالتاء والياء ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم أو يسند إلى عالم الغيب أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تاتيهم الملائكة﴾، أو يأتي ربك وقال: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾. وقرئ: ﴿عالم الغيب﴾ ﴿وعلام الغيب﴾ بالجر صفة لربي وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ولا يعزب بالضم والكسر في الزاي من العزوب، وهو البعد يقال روض عزيب بعيد من الناس ﴿مثقال ذرّة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى مثقال ذرّة، وقرئ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء وبالفتح على نفي الجنس كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله بالرفع والنصب وهو كلام منقطع عما قبله.

فإن قُلْتَ: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قُلْتُ: يأبى ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في عنه للغيب وجعلت الغيب اسمًا للخفيات قبل أن تكتب في اللوح لأنّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطورًا في اللوح.

﴿الذين سعوا في آيتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ وقرئ معجزين واليم بالرفع والجر، وعن قتادة الرجز سوء العذاب.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾.

﴿ويرى﴾ في موضع الرفع أي ويعلم أولوا العلم يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمّته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما، الذي أنزل إليك الحق وهما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع جعله مبتدأ والحق خبرًا والجملة في موضع المفعول الثاني، وقيل: يرى في موضع النصب معطوف على.

ليجزي أي: وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علمًا لا يزاد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا، ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق، فيزدادوا حسرة وغمًا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾.

﴿الذين كفروا﴾ قريش قال بعضهم لبعض.

﴿هل ندلكم على رجل﴾ يعنون محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشؤن خلقًا جديدًا بعد أن تكونوا رفاتًا وترابًا. يمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾.

أهو مفتر على الله كذبًا فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، ثم قال سبحانه: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار فيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون وأشدّه إطباقًا على عقولهم جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال كأنهما كائنان في وقت واحد، لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان، وقرأ زيد بن عليّ رضي الله عنه ينبيكم.

فإن قُلْتَ: فقد جعلت الممزق مصدرًا كبيت الكتاب.

ألم تعلم مسرحي القوافي فلا عيابهن ولا اجتلابا

فهل يجوز أن يكون مكانًا؟ **قُلْتُ:** نعم ومعناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع وما مرّت به السيول فذهبت به كل مذهب وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح.

فإن قُلْتَ: ما العامل في إذا؟ **قُلْتُ:** ما دلّ عليه إنكم لفي خلق جديد وقد سبق نظيره.

فإن قُلْتَ: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ **قُلْتُ:** هو عند البصريين بمعنى فاعل تقول جد فهو جديد كحد فهو حديد وقلّ فهو قليل وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جده إذا قطعه وقالوا: هو الذي جد الناسج الساعة في الثوب ثم شاع ويقولون ولهذا قالوا: ملحفة جديد وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إنّ رحمة الله قريب﴾ ونحو ذلك.

فإن قُلْتَ: لم أسقطت الهمزة في قوله افترى دون قوله السحر وكلتاهما همزة وصل؟ **قُلْتُ:** القياس الطرح ولكن أمرًا اضطرّهم إلى ترك إسقاطها في نحو السحر وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام.

فإن قُلْتَ: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ **قُلْتُ:** هو من الإسناد المجازي لأنّ البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة وكلما ازداد عنها بعدًا كان أضل.

فإن قُلْتَ: كان رسول الله ﷺ مشهورًا علما في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعًا عندهم فما معنى قوله: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول **قُلْتُ:** كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عزّ وجلّ ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفًا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إنّ في ذلك﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لآية﴾ ودلالة ﴿لكل عبد منيب﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له لأنّ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى: ﴿افترى على الله كذبًا﴾ وبالنون لقوله: ولقد آتينا وكسفًا بفتح السين وسكونه، وقرأ الكسائي يخسف بهم بالإدغام وليست بقوية.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿يا جبال﴾ إمّا أن يكون بدلاً من فضلاً وإمّا من آتينا بتقدير قولنا: يا جبال أو قلنا يا جبال، وقرئ أوّبي وأوبي من التأويب والأوب أي: رجعي معه في التسبيح أو راجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه، ومعنى تسبيح الجبال أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحًا كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها، وقرئ والطير رفعًا ونصبًا عطفًا على لفظ الجبال ومحلها وجوّزوا أن ينتصب مفعولاً معه وأن يعطف على فضلاً بمعنى وسخرنا له الطير.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين النظم وبين أن يقال: ﴿وآتينا داود منا فضلاً﴾ تأويب الجبال معه والطير **قُلْتُ:** كم بينهما ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفي من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلّهية حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته ﴿وألنا له الحديد﴾، وجعلناه له لينًا كالطين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة.

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

وقرئ صابغات وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء، وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكرًا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود، فيثنون عليه فقيض الله له ملكًا في صورة آدمي فسأله على عادته فقال: نِعْم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود، فسأله فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع ﴿وقدّر﴾ لا تجعل المسامير دقاقًا فتقلق ولا غلاظًا فتفصم الحلق والسرد نسج الدروع ﴿واعملوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

﴿ولسليمان الريح﴾ فيمن نصب ولسليمان الريح مسخرة فيمن رفع وكذلك فيمن قرأ الرياح بالرفع ﴿غدوّها شهر﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك،

وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رضي الله عنه كان يغدو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيًا وجدناه غدوّنا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر النحاس المذاب من القطران.

فإن قُلْتَ: ماذا أراد بعين القطر؟ **قُلْتُ:** أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه كما قال: ﴿إني أراني أعصر خمرًا﴾ وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بإذن ربه﴾ بأمره ﴿ومن يزغ منهم﴾ ومن يعدل ﴿عن أمرنا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ يزغ من أزاغه، وعذاب السعير عذاب الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى.

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾.

المحاريب المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها ويذب عنها وقيل: هي المساجد، والتماثيل صور الملائكة والنبيين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم.

فإن قُلْتَ: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير **قُلْتُ:** هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبي العالية لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّمًا، ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأنّ التمثال كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو تصوّر محذوفة الرؤوس، وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما والجوابي الحياض الكبار قال:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية[1] السيح العراقي تفهق[2]

لأن الماء يجبى فيها أي: يجمع جعل الفعل لها مجازًا وهي من الصفات الغالبة كالدابة قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة كقوله تعالى: ﴿يوم يدع الداع﴾ ﴿راسيات﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها ﴿اعملوا آل داود﴾ حكاية ما قيل: لآل داود وانتصب ﴿شكرًا﴾ على أنه مفعول له أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر أو على الحال أي: شاكرين أو على تقدير اشكروا شكرًا لأن اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث أنّ العمل للمنعم شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به ومعناه أنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرًا على طريق المشاكلة ﴿والشكور﴾ المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعيه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا وكدحًا وأكثر أوقاته، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من يشكر على أحواله كلها، وعن السدي من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء فقال الرجل: إني سمعت الله يقول ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر[3].

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾.

قرئ فلما قضى الموت ودابة الأرض الأرضة وهي الدويبة التي يقال لها السرقة والأرض فعلها فأضيفت إليه يقال: أرضت الخشبة أرضًا إذا أكلتها الأرضة، وقرئ بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضًا وهو من باب فعلته ففعل كقولك أكلت القوادح الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً، والمنسأة العصا لأنه ينسأ بها أي يطرد ويؤخر، وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلبًا وحذفًا وكلاهما ليس بقياس ولكن إخراج الهمزة بين بَيْنٌ هو التخفيف القياسي ومنساءته على مفعالة كما يقال: في الميضأة ميضاءة ومن ساته أي من طرف عصاه سميت بساة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم قحة وقحة وقرئ أكلت منساته ﴿تبينت الجن﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وجلى، و﴿أن﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك تبين زيد جهله والظهور له في المعنى أي ظهر أنّ الجنّ ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب﴾ أو علم الجن كلهم علمًا بينًا بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم أنّ كبارهم يصدّقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تنهكم بمدّعي الباطل إذا دحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبينًا، وقرئ: ﴿تبينت الجن﴾ على البناء للمفعول

(1) الجابية: أي الماء الجاري على وجه الأرض.
(2) وفهق الإناء: أي إذا امتلأ حتى يتصبب.
(3) رواه ابن أبي شيبة 10/322، كتاب: الدعاء، باب: ما ذكر عن أبي بكر وعمر والخ.

على أن المتبين في المعنى هو أن مع ما في صلتها لأنه بدل، وفي قراءة أبيّ تبينت الإنس وعن الضحاك تباينت الإنس بمعنى: تعارفت وتعالمت والضمير في كانوا للجن في قوله: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ما لبثوا، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة ثابتة قد أنطقها الله فيسألها لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة فسألها فقالت: نبت لخراب هذا المسجد فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال اللهم: عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال: لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئًا على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمرّ به شيطان، فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خرّ ميتًا ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيًا، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة. وروى أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب، روى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه، وكان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾.

قرئ ﴿لسبا﴾ بالصرف ومنعه وقلب الهمزة ألفًا، ومسكنهم بفتح الكاف وكسرها وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم، وقرئ مساكنهم و﴿جنتان﴾ بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة من قرأ جنتين بالنصب على المدح.

فإن قُلْتَ: ما معنى كونهما آية؟ **قُلْتُ:** لم نجعل الجنتين في أنفسهما آية وإنما جعل قصتهما وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرّبهما وأبدلهم عنهما الخمط والأثل آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمطا النعم، ويجوز أن تجعلهما آية أي علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره.

فإن قُلْتَ: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ **قُلْتُ:** لم يرد بستانين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم: أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم: لسان الحال أو هم أحقاء بأنّ يقال لهم ذلك ولما قال: كلوا من رزق ربكم ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجرة فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر طيبة لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا نباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وقرئ بلدة طيبة وربًا غفورًا بالنصب على المدح، وعن ثعلب معناه: اسكن واعبد.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾.

﴿العرم﴾ الجرذ الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقًا على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيًا يدعونهم إلى الله، وينكرونهم نعمته عليهم فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدهم الخلد فنقبه من أسفله فغرقهم وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة ويقال: للكدس من الطعام عرمة والمراد المسناة التي عقدوها سكرًا وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد، وقرئ: ﴿العرم﴾ بسكون الراء، وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ﷺ، وقرئ: ﴿أكل﴾ بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والأكل الثمر، والخمط شجر الأراك وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعمًا من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه ولجود عودًا ووجه من نوّن أن أصله نواتي أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: نواتي أكل بشع ومن أضاف، وهو أبو عمرو وحده فلأن أكل الخمط في معنى البرير كأنه قيل: نواتي برير والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمط لأنّ الأثل لا أكل له وقرئ وأثلا وشيئًا بالنصب عطفًا على جنتين وتسمية اليدل جنتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم وعن الحسن رحمه الله قلل السدر لأنه أكرم ما بدلوا.

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿وهل﴾ يجازي وهل نجازي بالنون وهل يجازي والفاعل الله وحده وهل يجزى والمعنى: انّ مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازي بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر، وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى: المعاقبة وأخرى في معنى: الإثابة فلما استعمل في معنى: المعاقبة في قوله جزيناهم بما ﴿كفروا﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم قيل: وهل يجازي إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقائل أن يقول لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه الا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا هل يجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسدّ كلامًا فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾.

﴿القرى التي باركنا فيها﴾، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدرنا فيها السير﴾ قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعًا ولا عطشًا ولا عدوًا ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾، وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ليالي وأيامًا﴾ **قُلْتُ:** معناه سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين لا تخافون وإن تطاولت مدّة سفركم فيها وامتدت أيامًا ولياليَ، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدّة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن.

فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾.

قرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبعد ويا ربنا على الدعاء، بطروا النعمة وبشموا من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد فعجل الله لهم الإجابة، وقرئ: ﴿ربنا﴾ بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما تقول: سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا.

وقرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء، والمعنى: خلاف الأوّل وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم كانهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه ﴿أحاديث﴾ يتحدّث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقناهم تفريقًا اتخذه الناس مثلاً مضروبًا يقولون ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيادي سبا قال كثير بن أيادي: سبا يا عزّ ما كنت بعدكم، فلم يجل بالعينين بعدك منظر لحق غسان بالشأم وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصي ﴿شكور﴾ للنعم.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾.

قرئ: ﴿صدق﴾ بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدّد فعلى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقًا، ومن خفف فعلى صدق في ظنه أو صدّق يظن ظناً نحو فعلته جهدك وبنصب إبليس، ورفع الظن فمن شدّد فعلى وجد ظنه صادقًا ومن خفف فعلى قال له: ظنه الصادق حين خيله إغواءهم يقولون صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعهما على صدق عليهم ظن إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيته أضعف عزمًا منه فظن بهم اتباعه وقال: ﴿لأضلنهم لأغوينهم﴾ وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها، والضمير في عليهم واتبعوه إمّا لأهل سبا أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقًا﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلاً﴾ ولا تجد أكثرهم شاكرين.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُو مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾.

﴿وما كان له عليهم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يملكون مثقال ذرة﴾ من خير أو شر أو نفع أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض ومالهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك كقوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾[1]، وماله منهم من عوين يعين على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجي.

فإن قُلْتَ: اين مفعولا زعم قُلْتُ: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول، وأمّا الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفًا فلا يصح الأوّل لأنّ قولك هم من دون الله لا يلتئم كلامًا ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليه وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد، فبقي أن يكون محذوفًا تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله، فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله: أهذا الذي بعث الله رسولاً استخفافًا فالطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله، والموصوف يجوز حذفه بإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهومًا؛ فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعًا بسببين مختلفين، تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول القيام لزيد.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ ﴿٢٣﴾.

فاحتمل قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه، أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله، وكأنه قيل إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فإن قُلْتَ: بما اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولأي شيء وقعت حتى غاية قُلْتُ: بما فهم من هذا الكلام من أنّ ثم انتظارًا للإذن وتوقعًا وتمهلاً وفزعًا من الراجين للشفاعة، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان وطول من التربص ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجلّ. ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابًا يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صوابًا﴾[2] كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون مليًا فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبهم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضًا ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال: ﴿الحق﴾ أي: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة[3]، وقرئ أذن له أي أذن له الله وأذن له على البناء للمفعول وقرأ الحسن فزع مخففًا بمعنى فزع، وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده؛ وفرغ أي نفي الوجل عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجل، وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول دفع إليّ زيد إذا علم ما المدفوع وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أي انتفي عنه وفني، ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ افرنقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكأكم على ذي جنة افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وقرئ الحق بالرفع أي مقوله الحق ﴿وهو العلي الكبير﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

۞ ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ ﴿٢٤﴾.

أمره بأن يقرّرهم بقوله: ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولأنهم إن تفوهوا بأنّ الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا ترى إلى قوله: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ حتى قال: ﴿سيقولون الله﴾، ثم قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة ومرّة كانوا يتلعثمون عنادًا وضرارًا وحذارًا من إلزام الحجة ونحوه قوله عزّ وجلّ: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة النبأ، الآيتان: 37، 38.

(3) قال الزيلعي: غريب: 3/141.

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا﴾، وأمره أن يقول لهم: بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾، ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام لمنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف، قال: لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك وفي درجة بعد تقدّمه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[1]

فإن قُلْتَ: كيف خولف بين حرفي الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ **قُلْتُ:** لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه وفي قراءة أبيّ وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾.

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإجرام الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام[2].

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾.

وفتح الله بينهم وهو حكمه وفصله أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿أروني﴾ وكان يراهم ويعرفهم **قُلْتُ:** أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به و﴿كلا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: ﴿هو الله العزيز الحكيم﴾ كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده أو ضمير الشأن كما في قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾.

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم، فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعًا للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعلها حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدمًا عليه فقد أخطأ لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ، ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوى له الخطأ الأوّل إلا بالخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾.

قرئ: ﴿ميعاد يوم﴾ وميعاد يوم وميعاد يومًا والميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان والدليل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فأبدل منه اليوم.

فإن قُلْتَ: فما تأويل من أضافه إلى يوم أو نصب يومًا! **قُلْتُ:** أما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول سحق ثوب وبعير سانية وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يومًا أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون الرفع على هذا أعني التعظيم.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا جوابًا على سؤالهم؟ **قُلْتُ:** ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتًا لا استرشادًا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقًا لمجئ السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدمًا عليه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ

---

(1) قال أحمد: وهذا تفسير مهذب، وافتنان مستعذب ردته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاده الخاطر كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخر، والفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فتأمّله، والله الموفق.

(2) قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك، والله أعلم.

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾.

الذي بين يديه ما نزل قبل القرآن من كتب الله يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعًا، وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: أو للمخاطب **﴿ولو ترى﴾** في الآخرة موقفهم وهم يتجانبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب فحذف الجواب، والمستضعفون هم الأتباع. والمستكبرون هم الرؤس والمقدمون.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾.

أولى الاسم أعني نحن حرف الإنكار، لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين **﴿بعد إذ جاءكم﴾** بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان، وصحت نياتكم في اختياره بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهي، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا.

فإن قُلْتَ: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافًا إليها؟ **قُلْتُ:** قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان كما أضيف إلى الجمل في قولك جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذٍ ويومئذٍ وكان ذلك أو أن الحجاج أمير وحين خرج زيد لما أنكر المستكبرون بقولهم: أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: **﴿بل كنتم مجرمين﴾** أن ذلك بكسبهم واختيارهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾.

مكر عليهم المستضعفون بقولهم: **﴿بل مكر الليل والنهار﴾**، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الأجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبًا ليلاً ونهارًا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين وبل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب أي: تكرون الإغواء مكرًا دائبًا لا تفترون عنه.

فإن قُلْتَ: ما وجه الرفع والنصب! **قُلْتُ:** هو مبتدأ أو خبر على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكركم أو مكركم أو مكركم سبب ذلك والنصب على بل تكرون الإغواء مكرّ الليل والنهار.

فإن قُلْتَ: لم قيل قال: الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال: الذين استضعفوا **قُلْتُ:** لأنّ الذين استضعفوا أمر ولا كلامهم فجئ بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جئ بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأوّل.

فإن قُلْتَ: من صاحب الضمير في **﴿وأسروا﴾ قُلْتُ:** الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله: **﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾** يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين **﴿في أعناق الذين كفروا﴾** أي: في أعناقهم فجاء بالصريح للتنويه بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال، وعن قتادة أسروا الكلام بذلك بينهم وقيل أسروا الندامة أظهروها وهو من الأضداد.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾.

هذا تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أي: الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ: أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا: **﴿وما نحن بمعذبين﴾** أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا.

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾.

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق تضييقه قال

تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾[1]، وقرئ يقدر بالتشديد والتخفيف.

وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾.

أراد وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم ونلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها أي ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب، وقرأ الحسن باللاتي تقرّبكم لأنها جماعات، وقرئ بالذي يقرّبكم أي بالشيء الذي يقرّبكم، والزلفى والزلفة كالكربى والكربة ومحلها النصب أي: تقرّبكم قربة كقوله تعالى: ﴿أنبتكم من الأرض نباتًا﴾[2] ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من كم في تقرّبكم والمعنى أنّ الأموال لا تقرّب أحدًا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرّب أحدًا إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرًا وقرئ جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف مرفوعان الضعف بدل من جزاء، قرئ في الغرفات بضم الراء وفتحها وسكونها وفي الغرفة.

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوضه لا معوّض سواه إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه، فليقتصد فإنّ الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبق طول عمره في فقر ولا يتأولن وما انفقتم من شيء، فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلاهم رب العزة بأنّ كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق، وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجدو واجد لا يشتهي.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾.

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر إياك أعني واسمعي يا جاره ونحوه قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾[3] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشدّ، وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم وهو أنه ألزم ويكون اقتصاص ذلك لطفًا لمن سمعه وزاجر المن اقتص عليه والموالاة خلاف المعاداة ومنها اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد والولي يقع على الموالي والموالي جميعًا والمعنى: أنت الذي تواليه من دونهم إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات مولاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك.

﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ يريدون الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، وقرئ: ﴿نحشرهم﴾ ونقول بالنون والياء، الأمر في نلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد لأنّ الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والنار فيها مخلى بينهم يتضارّون ويتنافعون والمراد أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذٍ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله:

فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفًا على لا يملك، الإشارة الأولى إلى رسول الله ﷺ والثانية إلى القرآن والثالثة إلى الحق والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو وفي قوله:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾.

﴿وقال الذين كفروا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا وفي قوله ﴿للحق لما جاءهم﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى

(1) سورة الطلاق، الآية: 7.
(2) سورة نوح، الآية: 17.
(3) سورة المائدة، الآية: 116.

القائلين، والمقول فيه وفي لما من المبادهة بالكفر دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجيب من أمرهم بليغ كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرًا.

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾.

﴿وما آتيناهم﴾ كتبًا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيرًا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانًا﴾، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: أم آتيناهم كتابًا من قبله فهم به مستمسكون، فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله:

وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾.

﴿وكذب الذين﴾ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوّة الأجرام وكثرة الأموال فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ يدرّسونها من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درّس الكتاب ودرس الكتب ويدّرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس والمعشار كالمرباع وهما العشر والربع.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿فكذبوا رسلي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قُلْتُ: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان نكير﴾ أي للمكذبين الأوّلين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾.

﴿أن تقوموا﴾ على أنه عطف بيان لها وأراد بقيامهم إما القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرّقين اثنين اثنين وواحدًا واحدًا ﴿ثم تتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به أمّا الاثنان فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادّة الحق وسننه وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويخلط القول ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب وأراهم بقوله: ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ أنّ هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعًا لا يتصدّى لادعاء مثله إلا رجلان إمّا مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة مختار من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه وقد علمتم أنّ محمدًا ﷺ ما به من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلاً وأرزنهم حلمًا وأثقبهم ذهنًا وأصلهم رأيًا وأصدقهم قولاً وأنزههم نفسًا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال، ويمدحون به فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين.

فإن قُلْتَ: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُ: يجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا تنبيهًا من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»[1].

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾.

﴿فهو لكم﴾ جزاء الشرط الذي هو قوله ما سألتكم من أجر تقديره أيّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم كقوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾[2] وفيه معنيان أحدهما نفي مسألة الأجر رأسًا كما يقول الرجل لصاحبه:

(1) تقدم في سورة الأنبياء.

(2) سورة فاطر، الآية: 2.

إن أعطيتني شيئًا فخذه، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا ولكنه يريد به البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن والثاني أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾[1] في قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة في القربى﴾[2] لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم وكذلك المودّة في القرابة لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم ﴿على كل شيء شهيد﴾ حفيظ مهيمن يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء، القذف والرمي تزجية السهم، ونحوه بدفع واعتماد ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب أن قنفيه في التابوت، ومعنى ﴿يقذف بالحق﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿علام الغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكن في يقذف أو هو خبر مبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب صفة لربي أو على المدح وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالبيوت والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جدًا.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾.

والحيّ إمّا إن يبدئ فعلاً أو يعيد فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك ومنه قول عبيد:

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد

والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: «جاء الحق وزهق الباطل» وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[3]، و﴿الحق﴾ القرآن وقيل الإسلام وقيل: السيف وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي ما ينشئ خلقًا ولا يعيده، المنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لأهله خيرًا ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أيّ شيء ينشئ إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل: للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان من شاط إذا هلك.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾.

قرئ: ﴿ضللت﴾ أضلّ بفتح العين مع كسرها وضللت أضلّ بكسرها مع فتحها وهما لغتان نحو ظللت أظلّ وظللت أظلّ، وقرئ إضلّ بكسر الهمزة مع فتح العين.

فإن قُلْتَ: أين التقابل بين قوله فإنما أضلّ على نفسي وقوله: ﴿فبما يوحي إليّ ربي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها أو يقال: فإنما أضل بنفسي **قُلْتُ:** هما متقابلان من جهة المعنى لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعني أن كل ما هو وبال عليها وضارّ لها فهو بها وبسببها لأنها الأمّارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عامّ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأنّ الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إنه سميع قريب﴾ يدرك قول كل ضالّ ومهتد وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾.

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف يعني: لرأيت أمرًا عظيمًا وحالاً هائلة ولو وإذ والأفعال التي هي: فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لأنّ ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجه لتحققه ووقت الفزع وقت البعث وقيام الساعة وقيل: وقت الموت وقيل: يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في خسف البيداء وذلك أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فلا فوت﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه وقرئ فلا فوت، والأخذ من مكان قريب من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله وأخذوا **قُلْتُ:** فيه وجهان العطف على فزعوا أي: فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا وقرئ وأخذ وهو معطوف على محل لا فوت ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ.

وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾.

﴿آمنا به﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله ما بصاحبكم من جنة، والتناوش والتناول أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم ويقال تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضًا وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من قيس نراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه، وقرئ التناؤش همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وأنؤر وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد

(1) سورة الفرقان، الآية: 57.

(2) سورة الشورى، الآية: 23.

(3) تقدم في سورة الإسراء.

من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه البيت:

تمني نئيشا أن يكون أطاعني

أي: أخيرًا.

وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾.

﴿ويقذفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ ويقذفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله، وقالوا آمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئًا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبًا عنه شاحطًا والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأنّ دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾.

﴿ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحًا ﴿بأشياعهم﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريقًا وهو أنّ المريب من الأوّل منقول ممن يصح أن يكون مريبًا من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقًا ومصافحًا[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها[2] وقرئ الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعنى أن الملائكة خلقًا أجنحتم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلْتَ: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شقّ نصفه فما صورة الثلاثة قُلْتُ: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفًا من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح[3]. وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئًا من الخلق هكذا، فقال:

---

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي 3/142.

(2) تقدم في الأنعام.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).